الذكرى العاشرة
لزيارة قداسة البابا يوحنا بولس الثاني للمغرب

بأمر من صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني اقيم يوم 25 جمادى الأولى 1416هـ موافق 16 اكتوبر 1995 م،بالرباط حفل بمناسبة تخليد الذكرى العاشرة للزيارة التاريخية التي قام بها البابا يوحنا بولس الثاني للمغرب.

وبهذه المناسبة، وجه صاحب الجلالة رسالة الى المشاركين في هذا الحفل تلاها مستشار جلالته السيد محمــد علال سيناصر.

وفي ما يلي نص الرسالة الملكية السامية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه

سماحة مبعوث قداسة البابا يوحنا بولس الثاني السيد فرانسيس كاردينال أرينزي

أصحاب السماحة والسعادة

حضرات السادة والسيدات،

إنه لمن دواعي الأمل والاستبشار، وبواعث التبصر والاعتبار، أن نحتفل بذكرى عشر سنوات على زيارة صديقنا قداسة البابا يوحنا بولس الثاني للمملكة المغربية. فلقد تَشرَّفنا باستقباله في ذلك اليوم المشهود، وقد حل بين ظهرانينا لنسج علاقات المحبة، ودعم أسباب الاتصال والوئام، بين الأمم والشعوب والأديان.

فنعم العمل ونعم الغاية ولايسعنا، بصفتنا أميراً للمؤمنين وأيضا كرئيس لمنظمة المؤتمر الاسلامي، إلا أن نبارك في مسعاه الحميد، ونبتهج بعزمه السديد، وحرصه المتضاعف، ودأبه المتجدد، على لقاء الناس جميعا، ناصحاً ومذكراً ومرشداً بالدليل الصائب، والحجة البليغة، والموعظة الحسنة التي توحي بها التعاليم الكتابية المنزلة.

لذلك كنا نتتبع ببالغ الاهتمام أعمال صديقنا قداسة البابا وأقواله منذ أن تولى مأموريته الخطيرة، ونسعد بتوجيهاته النيرة إلى مسؤولي الكنيسة في المغرب العربي

وغيره، وهو ينبه على أساس تعليمات "فاتكان الثاني"، داعيا إلى ضرورة مصافاة المسلمين، ومعرفة دينهم معرفة عميقة نزيهة، ملؤها التعاطف والتقدير. فالزيارة التي نحيي ذكراها اليوم، مساهمة فعلية في هذا الاتجاه، تبرز ما بين الديانتين الإسلامية والمسيحية من تقارب في النظر، وتآزر في القيم، وحب للمُثل، كما أنها تعزز قواعد الاحترام المتبادل انطلاقا مما «أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ»، وعملا بما وصّى الله تعالى به «نوحاً» و"إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وعِيسَى"، لإقامة شعائر الدين، وتقرير أحكام الكتاب، والحفاظ على الميراث المشترك للديانات السماوية، ذلك الميراث الذي أجمع عليه أئمة الإسلام، وقال به أعلام الفقهاء المجتهدين من الغزالي وابن رشد وابن تيمية وغيرهم، مثلَ ما اتفق عليه قادة الأديان ومفكروها، وما تبلور فيما بعد في ميثاق المنظمات الدولية الحديثة، وخاصة منظمة الأمم المتحدة، في مبادئ وحقوقٍ قارّةٍ مُقررةٍ متساوية.

أصحاب السماحة والسعادة

أيها السادة والسيدات،

قد لا يحصي العادُّون نقط الالتقاء بين مسؤولياتنا في عالم اليوم، خصوصا بالنسبة للشباب الذي هو نواة المستقبل، وأمارة الاستمرار. لكن مجمل هذه النقط تعود أصلا، من حيث ماهيتها وتوجهاتها، إلى العمل بالقيم الإنسانية الدينية، لأنها تقوي الوازع الروحي، وتجعله عنصراً فاعلاً، حاديا وهاديا إلى حل معضلات العصر التي لا تنتهي وإن تغيرت، ولا تنقضي وإن اختلفت وتنوعت، تاركة وراءها، في كل آن ومكان، ما نطلق عليه عادة اسم صروف الدهر. لكن القيم التي نؤمن بها، تجعلنا لا نَهِنُ ولا نحزن، لأن الله سبحانه وتعالى، الذي لا رادَّ لقضائه، ولامعقب لحكمه، يصرف عقول المؤمنين جميعا، ومنهم المسلمون، إلى الصبر والأناة، في مواجهة مصاعب الحاضر، ومظالمه المتعددة العنيدة، القديم منها والحديث، المترتب عن الحروب والتنافرات الموروثة، أو تلك التي ترتبت عن الحرب الباردة ومخلفاتها. نَعَمْ، إن المؤمنين يواجهون كل ذلك بالعزم والحزم والتفاؤل والتشبث بالقيم العالية التي بها تستقيم الدنيا، ويتحقق التقدم الذي ابتغاه الله تعالى للإنسان، حين استخلفه في الأرض، لإقامة عمرانها،

بالتدبير الحكيم، والعقل السليم، والإيمان الراسخ العميم.

أصحاب السماحة والسعادة

أيها السادة والسيدات،

ليس من قبيل المصادفة أن نحتفل بذكرى زيارة قداسة البابا، صديقنا يوحنا بولس الثاني، ونحن نترأس منظمة المؤتمر الإسلامي، بالإضافة لرئاستنا لجنة القدس الشريف، كما كان عليه الأمر سنة 1980 عند زيارتنا لحاضرة الفاتيكان. وبالنسبة للمؤمن بالله، المتوكل عليه، المصدق لرسالاته، المستضيء بنور هدايته، ليس ذلك من محض الاتفاق والصدفة، إنه من تقدير الله عز وجل، وعلمه وحكمته. والمناسبة هذه استحثاث على القيام بمسؤولياتنا مهما صعبت، وتذليل العقبات كيفما عسرت، ومجابهة الوقائع كيفما تعقدت، أداءً للأمانة المنوطة بنا، وسعيا لبلوغ أهدافنا في تحقيق التقارب والتفاهم والتعاون والسلام. فالأهداف من مكونات رسالة الإيمان، بل هي صميمها، وهي جزء لايتجزأ من الجهاد الذي يخوضه المؤمن لاستلال العنف من النفس الأمارة بالسوء؛ وبالأهداف نهتدي في العمل على تأصيل منطق الحوار، وترجيح منهاج الأخلاق، ومحاولة إعطاء السلوك والتصرفات صيغة بشرية عليا، ومعانيَ إنسانية مُثلى، لاتكتفي بالظاهر والمظهر، ولاتحل من الخارج كألوان غير متأصلة، أو زخرفة كاذبة عابثة، بل إنها تندرج فيما سمته كتبنا: الهدى والنور، والحقّ والفرقان.

ونشعر، نحن المسلمين، بما يختلج في صدور كل المؤمنين الصادقين من "تساؤلات"، ولكنا ندرك أن الأديان جاءت معدِّلة لأفعال الإنسان وأعماله، على أن تستنير أعماله بنور الإيمان، فتتوسط بين الإفراط والتفريط، لإدراك الحقيقة الكلية العليا من جهة، ولتوظيف هذا الإدراك من جهة أخرى في صالحه، فيسلك المسالك التي تبتَعد عن التفرق والتنازع والبغضاء والفتن. ولا ينتظم ذلك إلا بدرء المفاسد أولاً، والأخذ بالمصالح ثانياً، لتحسين حال الإنسان الذي سخرت له الأرض، فكان في صلاحه صلاحها وصَلاح العالم وأحواله. لذلك كانت الحقيقة ترتبط بالإدراك الفطري البسيط، والمقاصد بالتكاليف اليومية في العبادات والمعاملات، لما تتوخّاه جميعها من تهذيب الإنسان وسعادته وطمأنينته وسلامة مصيره.

وكما قال علماؤنا : للديانة غاية إلاهية، ومقاصد إنسانية. ومن ثَم كانت عبادة الله سبحانه وتعالى إصلاحاً لحال الإنسان. وكان سر ارتباط الدين بالدنيا في علاقة العاجل بالآجل، وارتباط مصالح الدنيا بمراشد الدين.

أصحاب السماحة والسعادة

أيها السادة والسيدات،

وفيما نحن نستشرف مطالع القرن الواحد والعشرين، ونستطلع إمكاناته، نستبين مجال المفارقة الناشئة، من جهة، عن توفر وسائل الهيمنة على مصير الإنسان وحرياته، ومن جهة أخرى، عن انهيار كل الحواجز التي كانت تحد من حرية الإنسان. ومن ذا الذي لا يهنأ لنهاية عصر الشعارات البراقة، والتخطيطات المركزة المنظِّرة، ومحاولة إخضاع كل مرافق الحياة لمراقبة فئة منيعة وحزب وحيد؟ لقد ابتهجنا لهذه النهاية لأن الله تعالى حذر من الإكراه حين قال عَزّ من قائل: «وإذا تولى سعى في الأرض ليُفسد فيها ويُهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد» (205/2) وقال: «إن الإنسان ليطغى» (6/96). ذلك أن الظلم إذاية وآفة للبلاد والعباد، وإقبارٌ لآمال العاملين في ثمرات أعمالهم وفوائد مكاسبهم. وإن سجلت قضية الحرية، باندثار حائط برلين، كسبا عظيما ونصرا مؤزرا، فلقد توضحت به المسؤوليات، وتجددت الآفاق واتسعت اتساع العقل والوجدان. وكنا من الأوائل الذين أدركوا، منذ أمد غير يسير، هذه الحقائقَ والغايات، وذلك عند رجوعنا بصحبة والدنا، طيب الله ثراه، من منفانا السحيق، فعملنا، دون تريب أو احتراز، على ترجيح كفة الحرية والمسؤولية، اتباعا لتعاليم ديننا، وتقاليد بلادنا، وانطلاقا مما كسبته الإنسانية بانتهاء الحرب الكونية. كان أملنا وطيداً في حلول عهد جديد يتميز بالنضج والتفتح وتوحيد المقاييس في تطبيق الشرعية الدولية. ولكن خشيةً أن تصبح حرياتُنا ميدانا للاتجار والمضاربة، ومسؤولياتُنا ضحيةً لشتى المغريات، قرّرنا أن نقوي إرادة أبنائنا وبناتنا، داخل أسرتنا الصغيرة والكبيرة، وننعش عزيمتهم على المحافظة على وسائل الاختيار الحقة.

لقد جعلت منظمة الأمم المتحدة من هذه السنة عام التسامح. ولكن ما نستقرئه من مجريات الأمور، ومن بينها المطامع الجهوية المؤدية إلى إراقة دماء الأبرياء، وقتل «النفس التي حرم الله»، (151/6) يجعلنا نخشى على العالم الرجوع، الظاهر أو

الباطن، إلى الروح القبلية، والنزعة العنصرية، والتعصب المذهبي، والتطرف العقدي، وباقي الظواهر التي تخلق الهوة وتعمقها بين الترقي في الماديات، والتردي في السلوك والأخلاقيات.

إن أخطر الأخطار، يرجع، كما يتجلى في محيطنا اليومي، سيما فيما تبرزه وسائل الإعلام السمعية - البصرية، إلى عدم الاكتراث بقواعد التعايش والتعاضد، والعمل من أجل سلامة الأبدان، ونجاة جنس الإنسان، كما قال الحكماء القدماء. والمسلمون بالخصوص، يعيشون فترة يعانون فيها ما يعانون، بسبب تعثر تجاربهم التنموية، وتفاقم قضاياهم الاجتماعية، وبالخصوص تلك المتعلقة بالبطالة والمترتبة عنها. وتزيد مشاكلهم الموضوعية حدةً بسوء الرؤية للغير التي يذهبون ضحيتها. فالتصور السائد عن الإسلام والمسلمين، وعن أمم الجنوب عامة، سيما البلاد الإفريقية، لا يساعد على التعاون والتفاهم. ونأمل في هذا الصدد أن يكون لِمَجهودنا المستنير بتعاليم الإسلام السمحة والقيم الإنسانية الكونية، أثر على دعم وسائل التناصح والتآزر، وتنشيط مؤسسات اللقاء الإنساني، والحوار الفكري والاجتماعي، الذي طالَبَتْ بتعميقه والانضمام إلى ما تقرر في شأنه، لقاءاتٌ عديدةٌ، وندواتٌ تكررت في العقدين الأخيرين، ومن المفيد أن تواصل مجهوداتها الواعدة، حتى تؤتي أكلها، ويستفيد الجميع من نتائجها.

أصحاب السماحة والسعادة

أيها السادة والسيدات،

إن الإسلام نشأ وترعرع في بيئة عرفت ديانات ومللا ونحلا وفلسفات، منها الديانتان السماويتان اليهودية والمسيحية. ولذلك فقد اكتسب منذ فجره تجربة واسعة في التعايش والتواصل بين الأديان المختلفة. قال بعض المستشرقين : إن الإسلام بطبيعته ومقتضيات تاريخه دين سمح متسامح بالضرورة... ونحن نرى أصل القيم التي نومن بها، في الفطرة التي فطر اللهُ الناس عليها، وأعدهم لفهمها، وهيأهم للانقياد لها، واحترامها كاملة صافية بعيدة عما يَلتبس بها من الهوى والضلال. وتؤكد تقاليد التسامح هذا الإقبال على الحوار، كما تشهد بذلك المناظرات العلمية العديدة التي جَرَتْ عبرَ التاريخ بين علماء النصارى والمسلمين... وقد أدرك الإسلام في مهده، إيجابية

الاختلاف، ومقصد الحكمة الإلاهية منه، كما تتجلى في قوله تعالى: «ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم» (22/30) وقال جل وعلا : «لكلٍّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً. ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات» (48/5).

ومن بين هذه الخيرات قواعد الحوار وأخلاق التعاون وواجبات التضامن بين جميع الناس، مهما اختلفوا في فهم رسالتهم، أو منطق لغاتهم، أو مميزات تقاليدهم وثقافاتهم. ونحن نعمل دائما على أن يكون سلوكنا تجسيدا مستمرا لاحترام الحرية والرأي والحقوق في سياستنا داخل بلادنا، وعلى الساحة العربية والإسلامية، وفي جميع مواقفنا الدولية. قال تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم» (49/13).

وقد اعتدنا أن نُذكِّرَ، في كل مناسبة، بضرورة التعارف الذي ندعو جميعا إليه، وأن لم نقف طويلا على واقعه التاريخي، إقليميا وعالميا، بالرغم ما لهذا التاريخ من معنى ومغزى، مفضلين التأكيد على ما يتضمنه من قيم، وما يترجمه من واقعية وحكمة، لارتباطه بواجبات الوقت، ومقتضيات التربية العامة ومتطلبات الحضارة. وفي هذا المضمار، فمن المفيد أن نتأمل الربط بين تقوى الله وكرامة الإنسان واحترام الغير في القرآن؛ وجميعها قيمٌ ركَّز عليها الإسلام، والديانات السماوية بصفة عامة، هدايةً للناس في معاملاتهم بينهم جميعا، وبين أهل الكتاب بالدرجة الأولى، لأنهم تعايشوا وأخذوا من بعضهم بعضا.

والإسلام في حرصه لاتباع هذه الطريق، ونهج هذا المنهج، إنما يستجيب للأوامر الربانية، ويأخذ بالقيم التي نزلت من أجلها الرسالات، وبعث الله في شأنها الرسل... وأنتم تعلمون، أرشدكم الله، أن أهم ما يدعونا الله تعالى إليه هو الخلق الكريم، وفضائل الطبع، ومحاسن العهد، بوصل من قَطَع، وإعطاء من حَرمَ، والعَفْو عمن ظَلَمَ، وغير ذلك من أصول الفضيلة وينابيع الشيم والمناقب. لذلك ذكَّرنا أعضاء المجلس التنفيذي لليونسكو، حينما زاروا مملكتنا في الصيف الماضي، بدور التربية التي ليست مجرد تلقين، وبهامها التي هي من أهم ما يساهم به المجتمع الدولي في حل مشاكل العصر، والحد من العنف والبطالة والشنآن والحروب، بالاجتهاد والصبر، واحترام حقوق

الغير، والثقة بالله، والعمل لوجهه. فالمقصد الأسمى من التربية : الأخلاقُ. وهو رياضة للروح، وتمرن على المسؤولية. والخلق يبدأ بإحسان الجوار، ومعاشرة الناس، ليستقيم اجتماعُهم، وتنتظم أحوالُهم، فيحسن كل إلى أخيه، كما أحسن الله إليه.

أصحاب السماحة والسعادة

أيها السادة والسيدات،

إن كنا نحتفي في هذا اليوم المبارك، بذكرى عزيزة على قلوبنا، ذكرى أول زيارة قام بها رئيس الكنيسة الكاثوليكية لبلد مسلم، فإننا نرى أن من الضروري، بل ومن الحيوي، تنشيط علاقات التفاهم والتعاون بين الأديان السماوية، لا للتفاهم فيما بيننا فحسب، ولكن لدعم الحوار على جميع المستويات، سيما تلك التي من شأنها أن تساهم في إقرار دعائم السلام، وتقدير قيم التضامن، وضمان مستقبل الشباب، الذي هو قوام عالم الغد. فَلْنبدأ بأنفسنا، ولنتعاون على تنمية المناطق والبلدان التي نتساكن فيها، ويتعايش بها المؤمنون من ورثة سيدنا إبراهيم الخليل، لتكون مثالا يستشهد به، ونموذجا يُستَطلعُ إليه.

إن الرسالات السماوية، التي تلهم أعمالنا، كانت ثورة على الجاهلية والقبلية والعرقية، ودعوةً للتقوى والإيمان، وسبيلا للعمل والأمل، هذا الأمل الذي ينبغي تمرير الرسالة من جيل إلى جيل، حتى لا تنفصم العروة الوثقى التي تربط بين الأجيال. فلنعمل جميعا على محاربة البؤس، واستئصال اليأس، والدفاع عن الحقوق، وتركيز التشاور والتحاور في الوسائل القمينة بمد الجسور بين بني البشر، وخاصة بين الشمال والجنوب، وبين ضفتي البحر الأبيض المتوسط، لنُحوِّل حواجز البحار والرمال والتقاليد، إلى ميادينَ جديدةٍ للتعاون، وتحدياتٍ إيجابيةٍ يَخْتَبِرُ بها اللّهُ إرادةَ الخير عند الإنسان ليقَوِّيَها، حتى يكون التنافس تنافسا في بلوغ الهدف المنشود، والاجتهادُ اجتهاداً نحو المرام المحمود. وذلك ما سَيَتِمُّ إذا أفهمنا شبابنا ما يوَحِّدُنا، وجعلناه مدركاً لعمقِ ما عليه تلاقينا، وأقنعناه بأن ردودنا على أسئلة اليوم ردودٌ متقاربةٌ متشابهةٌ، لأن «الحق قديم»، والأجوبة الحقة على الأسئلة الجديدة قد تتنوع صيغُها، ولكن منبعَها واحد، لأن ملهمهما واحد، وهو ربنا، عليه توكلنا، وإليه أنبنا، وإليه المصير،

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.